منهج القرآن الكريم
في
دعوة المؤمنين إلى الأكل من الحلال الطيب

إعداد

أ.د/ محمد بحيري إبراهيم

أستاذ التفسير بكلية أصول الدين

والدعوة بالمنوفية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أفضل رسله ومصطفاه ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

وبعد :

فإن من يمعن النظر والتدبر فى آيات القرآن الكريم يظهر له بوضوح أن الله سبحانه دعا عباده المؤمنين إلى الكثير من الفضائل الأخلاقية والتكاليف الشرعية وأمرهم أن يقوموا بأدائها أو يتحلوا بها :

ومن ذلك دعوته سبحانه لهم إلى الركوع والسجود ، وذكر الله تعالى وتقواه سبحانه والإنفاق فى سبيله ، والصبر ،والتوبة ، والطاعة ،والاستجابة لله ولرسوله إلى غير ذلك من الفضائل والتكاليف .

قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »(1) .

---

(1) الحج (77)

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلا »(١) .

وقال عز شأنه : « يا أيها الذين آمنوا اتقـــوا الله وكونوا مع الصادقين »(٢) .

وقال وقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة »(٣) .

كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »(٤) .

وتلك آيات فى هذا المقام على سبيل المثال لا الحصر :

وكما دعا سبحانه عباده المؤمنين وأمرهم بهذه الأمور ، دعاهم سبحانه أيضاً وأمرهم أن يأكلوا مما أحله لهم وجعله طيباً شهيا مستساغا ، وإن اختلف مقتضى الأمر فى هذا المجال عنه فى الأمور السابقة . وجوباً أو ندباً واستحباباً، ولكن يكفى أن الله تعالى دعا بصريح الأمر إلى استعمال نعمه الحلال (أكلا أو شربا أو غير ذلك) .

وجعل سبحانه إجابته إلى هذا الأمر طاعة له واستجابة لدعوته، لأن إجابة الكريم فى دعوته إجلال له وتعظيم ، فضلا عما يعود على الإنسان نفسه من منافع وفوائد مادية وروحية لا تعد ولا تحصى .

---

(١) الأحزاب (٤١ ، ٤٢)
(٢) التوبة (١١٩)
(٣) البقرة (٢٥٤)
(٥) آل عمران (٢٠٠)

منهج هـــذه الدعوة

وكانت دعوة القرآن المؤمنين إلى هـــذا الأمر قائمة على نوعين من الأساليب .

النوع الأول : أسلوب الأمر الصريح بأكل الطيبات من الرزق .

الأسلوب الثاني : أسلوب النهي عن تحريمها أو إنكار هذا التحريم عندما وقع من بعض الناس .

فمن النوع الأول جاء قوله :

١ — « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »(١) .

٢ — « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون »(٢) .

٣ — « وكلوا مـــا رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون »(٣) .

٤ — « فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون »(٤) .

---

(١) البقرة (١٦٨-١٦٩) (٢) البقرة (١٧٢)
(٣) المائدة (٨٨) (٤) النحل (١١٤)

والواقع : أن من يتفقد هذه الآيات الكريمة يجد أن القرآن الكريم قد اتخذ فى إباحة التمتع بطيبات الحياة — جريا على مبدأ الاعتدال الذى يبنيت عليه سائر أحكام الإسلام — تحفظين شدد فى مراعاتهما هما: حسن النية ويكون بقصد شكر الله على نعمه لا بقصد التفاخر والخيلاء ، ثم الوقوف فيها عند حد الاعتدال حتى لا يقع الإنسان فى الإسراف .

قال تعالى : « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وقال عز شأنه : « واشكروا نعمة الله » ، وبهذين التحفظين حارب الإسلام الترف والبذخ والتبذير فيما لا يعود على النفس أو الأمة بخير(١) .

بيان هذه الآيات

فى الآية الأولى : — وهى الوحيدة بين زميلاتها فى ندائها الناس عامة — نجد دعوة إلى الأكل من بعض ما فى الأرض من أصناف المأكولات التى من جملتها ما حرموه على أنفسهم افتراء على الله تعالى الذى أباح لهم من فضله جميع خيراتها بشرط أن تكون محصلة بطريق حلال طيب وسبب نزول هذه الآية الكريمة ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:(نزلت هذه الآية فى قوم من ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج ، حرموا على أنفسهم ما حرموا(٢) ، أى مما جعله الله حلالا طيبا ولم ينزل تحريمه عليهم .

فجاء خطاب الله تعالى للناس عامة بأن يأكلوا من بعض ما فى الأرض

---

(١) من توجيهات الإسلام — لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ص ١٢٧

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ١٤٥

المأكولات الطيبة الحلال، ثم حذرهم سبحانه من اتباع خطوات الشيطان اللعين ومسالكه فى هذا المجال، فإنه يزين للناس القبيح حسناً، والمنكر معروفاً، والخبيث طيباً ويغريهم بأن يقولوا على الله بلا علم، هذا التزيين الباطل والإغواء المضل والخروج بالأشياء عن حقيقتها إنما يكون منه للإيقاع بالناس فى حبائله وشراكه، وحملهم على تحريم ما أحل الله لهم، فيحرمهم بذلك من كثير من نعم الله وخيراته التى أسبغها عليهم ظاهرة وباطنة، وهذا الإغراء والتزيين فاشيء فى الحقيقة عن عداوته البينة لهذا الإنسان الذى اختاره الله تعالى ليكون خليفة له فى الأرض.

وفى الآية الثانية: يوجه الله تعالى الخطاب للمؤمنين خاصة لأنهم أولى بالاهتداء وأحق بالعلم والتوجيه وأقرب إلى الاستجابة لأمر الله سبحانه وأمر رسوله ﷺ وقيل لكونهم أفضل أنواع الناس(١).

يأمرهم سبحانه بأن يتمتعوا فى هذه الحياة بما أحله لهم من المكسب المشروع والرزق الطيب، والمتاع النافع، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إن المراد (طيب المكسب لاطيب الطعام) ويؤيده حديث «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً(٢)».

وفى مقتضى الأمر فى قوله تعالى (كلوا) يقول الإمام الصاوى فى تفسيره (قيل الأمر للوجوب بالنسبة لإقامة البنية، وللندب بالنسبة للاستعانة على أمور مندوبة(٣)).

---

(١) فتح القدير جـ ١ صـ ١٦٩.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم وأحمد والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) حاشية الصاوى على الجلالين جـ صـ ٧٧.

والطيبات المذكورة فى الآية الكريمة إن أريد بها (ما أحله الله تعالى منها) فالأمر بأكلها يقتضى النهى عن سواها ويوجب قصر الأكل عليها وحدها ، وقد بين النبى ﷺ حكمة ذلك فى قوله (يا أيها الناس: إن الله طيب لايقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين) قال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنـــوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) . وإن أريد أيها أى (الطيبات) ماطاب منها وكان لذيذ الطعم غزير الفائدة من اللحوم والفواكه وغيرها فالأمر بأكلها أمر إباحة وليس أمر إيجاب ا. ه(١) .

ونخلص من هذين الرأيين إلى وجوب الأكل من الحلال بوجه عام بمقدار مايقيم البنية ويحفظ على الإنسان صحته وعقله ، وهـــذا يقتضى وجوب الانتهاء عما عدا هذا الحلال ، أما المستلذات من الأطعمة فالأمر بتناولها يكون للإباحة والندب لاللوجوب ، لأنه ليس كل إنسان يستطيع أن يحصل على ماتميل إليه نفسه من أطايب الأطعمة والأشربة وذلك لأسباب قد تكون اقتصادية وقد تكون اجتماعية وقد تكون صحية وذلك من حكمة الإسلام ويسره الواضح .

وهذه الآيه تزيد عن سابقتها ـ مادام الخطاب للمؤمنين ـ الأمر بشكر الله تعالى على نعمه التى عمهم بها إن كانوا حقاً صادقين فى دعوى الإيمان عابدين الله تعالى حق العبادة ، منقادين لحكمه ، مطيعين لأمره ، لايعبدون الأهواء ولا الشهوات .

---

(١) انظر مجلة الأزهر عدد ٥ رمضان سنة ١٣٩٨ هـ مقال لفضيلة الشيخ محمد الحديدى الطير .

وفى مقتضى الأمر بالشكر قال بعض العلماء إنه (للوجوب) إذا كان الشكر بمعنى الاعتقاد والمعنى : اعتقدوا أن النعم صادرة لكم من الله ، وعلى هذا المعنى يكون إنكاره كفراً ، وقد يكون هذا الأمر (للندب) إذا كان الشكر بمعنى المراقبة والمعنى : راقبوا فى كل لحظة أن كل نعمة من الله ، وهو بهذا المعنى من مقام الخواص(١) .

وفى هذا الأمر العظيم أيضاً وهو (واشكروا لله) التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة ، لأنه لو جرى على الأسلوب الأول لقال (واشكرونا) وفائدته تربيه المهابة(٢) والروعة فى القلوب إزاء هذا المسلك الخطير .

وأما الآية الثالثة : فسوف يأتى الكلام عنها عند الحديث عن آيات النوع الثانى .

وأما الآية الرابعة : فإنها ذكرت فى ثنايا نص كريم يضرب الله فيه المثل للمؤمنين بتلك القرية التى كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها الواسع من كل النواحى براً وبحراً فكفرت بأنعم الله ، وجحدت فضله ومنته ، تبكذبها رسوله ﷺ ، فأنزل الله عليها سخطه ونقمته ، وأذاقها لباس الجوع والخوف ، فظهر عليهم من الهزال وصفرة الوجوه وسوء الحال ماهو كاللباس . وبعد ضربه سبحانه هذا المثل يقول ﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ وقد اختلف المفسرون فى المقصود بالخطاب فى ﴿ فكلوا ﴾ .

فقال بعضهم إن الخطاب لكفار مكة والمعنى : وإذا استبان لكم حال

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ١ ص ٧٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ١٣٨ ، أبو السعود جـ ١ ص ١٤٧

من كفر بأنعم الله و كذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك فانتهوا عما أنتم عليه من كفر بالنعم وتكذيب للرسول عليه السلام كى لا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام فى أمره ونهيه وكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالا طيبا وذروا ماتفترون من تحريم البحائر وغيرها (١) .

وقيل إن الخطاب للمؤمنين وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما ، والمعنى على ذلك (فكلوا يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم حلالا طيبا ، يعنى : أن الله أحل الغنائم لهذه الأمة وطيبها لهم ولم تحل لأحد قبلهم ، وقيل إن المعنى : و كلوا مما رزقكم الله من الأنعام الطيبة عموماً)(٢).

ثم ربط ذلك بمقتضى الإيمان أى إن كنتم تطيعون الله حقا طاعة منشأها التوحيد وباعثها الإيمان واليقين بإفراد الله بالعبادة وحده دون سواه فكلوا مما أحله الله ودعوا ما حرمه .

ثم إن عطف الأمر بالفاء فى ﴿فكلوا﴾ يشعر بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر ، والمعنى إنكم لما آمنتم وتركتم الكفر (فكلوا الحلال الطيب واتركوا الخبائث وهو الميت والدم (واشكروا نعمة الله) التى أنعم بها عليكم واعرفوا حقها (إن كنتم إياه تعبدون) ولا تعبدون غيره ، وقيل إن الفاء هذه داخلة على الأمر بالشكر وإنما دخلت على الأمر بالأكل لأنه ذريعة إلى الشكر(٣) .

وأمام هذين القولين للعلماء فى المقصود بالخطاب فى (فكلوا) أرى

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٣ صـ ١٩٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ صـ ٦٠٢ ، ٦٠٣ .
(٣) فتح القدير للشوكانى جـ ٣ صـ ٢٠٠ .

أن القول بأنه خطاب للكفار أولى بالقبول لأن سياق النص الكريم يقوى ذلك ويؤيده ويبعد أن يكون الخطاب للمؤمنين لأن النهى الآتى بعد هذا الخطاب وهو قوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهـــذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾(١) لا يساعد على هذا القول .

ومن خلال هذه الصورة التى رسمها النص الكريم وبين ثنايا هذه الآية المباركة ندرك بوضوح أن التأبى على أحكام الله تعالى بتحريم الحلال وتحليل الحرام إنما هو نذير سوء ومقدمة لنزول مقت الله وغضبه على من يرتكبون هذه الفعله الجريئة على حق الله تعالى من الإصابة بالخوف بعد الأمن والجوع بعد الشبع وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وأما النوع الثانى :

فقد جاء بأسلوب آخر يختلف فى تعبيره عن الأسلوب الأول متخذا عدة طرق نبينها فيما يلى .

(أ) طريق النهى الصريح عن تحريم ما أحله الله تعالى ، وفى هذا السبيل جاء قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٢) .

(ب) أو نفى تحريم ما هو مباح بحكم الأصل ولم يبين الشرع فيه حكما بالتحريم فيبقى على إباحته ، ومن هذا النوع جاء قوله تعالى : « ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون

---

(١) النحل (١١٦) .
(٢) المائدة (٨٧) .

على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون »(١) .

(ج) أو طريق إنكار هذا التحريم على من حرمه بأسلوب الإستفهام الإنكارى الذى يحمل معانى التوبيخ والتقريع على ارتكاب هذا العمل الأثيم إذ التحليل والتحريم إنما هو من اختصاص المشرع الحكيم ، وفى هذا الصدد جاء قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(٢) ، وقوله تعالى أيضاً « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ، وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »(٣) .

بيان هذه الآيات

نزلت الآية الأولى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . الآية » عندما عزم بعض أفراد من المسلمين فى المدينة « دار الهجرة » على التزمت بتحريم بعض الطيبات على أنفسهم ظانين أن ذلك يرفع منزلتهم عند الله ويحببهم إلى رسوله ﷺ فقد جاء فى سبب نزولها ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أتى النبى ﷺ وقال « إذا أكلت هـذا اللحم انتشرت إلى النساء ، وإنى حرمت هذا اللحم على نفس فنزلت الآية الكريمة) .

---

(١) المائدة (١٠٣) .
(٢) الأعراف (٣٢) .
(٣) يونس (٥٩) .

وقال المفسرون : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فذكر الناس ووصف القيامة . . . إلخ فاجتمع عشرة من الصحابة فى بيت عثمان ابن مظعون الجمحى فيهم أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلون اللحم ولا الودك(١) ويترهبوا ويجبوا المذاكير فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم فقال : ألم أنبأ أنكم أتفقتم على كذا وكذا ؟ فقالوا : بلى يارسول الله ، وما أردنا إلا الخير ، فقال: إنى لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم الدسم ، ومن رغب عن سنتى فليس منى ، ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال ، مابال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهباناً فإنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتى الصـــوم ورهبانيتها الجهاد ، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ... فأنزل الله هذه الآية)(٢) والسر فى ذلك أن الطيبات نعم من نعم الله على الإنسان والله تعالى يحب من عباده أن يقبلوا نعمه التى تدعوا إليها فطرهم ويحب أن يرى أثرها عليهم ويكره لهم الجناية على فطرهم بمنعها حقها(٣) .

ومن خلال هذا النص الكريم ندرك أن القرآن العظيم يعتبر هذا المسلك من بعض المسلمين اعتداء على حدود الله تعالى حيث يقول

---

(١) الودك : الشحم أو الدسم .
(٢) المائدة (٨٨) .
(٣) من توجيهات الإسلام : لفضيلة الشيخ شلتوت ص ١٢٤ .

﴿لا تعتدوا﴾ أى ولاتتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ماحرم عليكم، أو جعل تحريم الطيبات الحلال اعتداءاً وظلماً فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أولياً لوروده عقبة(١).

ومن هذا المبحث نخلص إلى أن تحريم الحلال وتحليل الحرام علاوة على اعتباره افتراءاً وكذباً وعدواناً. هو كذلك كفر وضلال وظلم وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين﴾(٢) وقال تعالى فى مقام آخر ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾(٣).

وبعد أن نهاهم سبحانه عن تحريم ما جعله لهم حلالا طيباً مباركاً أمرهم أن يأكلوا من رزقة الحلال الطيب مراعين تقوى الله الذى آمنوا به إيماناً عميقاً، وأن تكون هـــذه التقوى متحققه فى كل ما يأتون ومايذرون.

ومن هنا يجب أن ندرك أنه لافضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر إنما هو فى فعل ماندب الله عباده إليه، وعمل به رسوله الكريم ﷺ وسنه لأمته، وأقام عليه الأئمة الراشدون والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

وأما الآية الثانية: فإنها تفيد تكذيب المشركين فيما دأبوا عليه من

---

(١) تفسير الكشاف الإمام الزمخشرى جـ ١ ص ٦٤٠.
(٢) التوبة (٣٧).
(٣) الأنعام (١٤٤).

تحريم بعض الحيوانات على أنفسهم رغم ما هم عليه من شدة الاحتياج إليها والانتفاع بها ، فبين الله تعالى لهم أن ذلك الذى يحكمون به من التحريم أمر باطل حيث لم يكلفوا به ، ولم يأتهم شرع بذلك(١) .

معنى الآية : إن الله سبحانه لم يشرع شيئاً من هذا الذى حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم (من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام) ولا هى عنده قربة ، وإنما هم الذين وقعوا فى ذلك وجعلوه شرعاً لهم . فحرموا أكله والانتفاع به ، واعتبروه قربة يتقربون بها إليه ، دون أن يكون لديهم من الله دليل على ذلك ، وإنما يفترون على الله الكذب الصراح فصاروا بذلك لا يفقهون للحق طريقاً ، وإنمـــا أعماهم الهوى والشهوات واتباع الرؤساء والآباء فضلوا وأضلوا .

وأما الآيه الثالثة : ففيها يقول الله تعالى لرسوله ﷺ (قل) لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعاتهم الضالة المضللة ، منكراً عليهم وموبخاً لهم « من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) من النبات والحيوان والمعادن (والطيبات) أى المستلذات من المآكل والمشارب ، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله . كلا إنها مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا وإن شاركهم فيها الكفار حساً فى الدنيا فهى للمؤمنين خالصة يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد منهم لأن الجنة محرمة على الكافرين(٢) .

ومن هذا القول نجد دليلا على أن الأصل فى هذه الأشياء هو (الإباحة)

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٢ صـ ١٠٩ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٤٠٤ ط الشعب بتصرف ، وحاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ صـ ٧٠ ، ٧١ وتفسير أبى السعود جـ ٢ صـ ١٦٤

وفى مجال الإستفهام الإنكارى والتوبيخى أيضاً على تحريم الحلال جاءت الآية الرابعة والأخيرة فى هذا المقام وهى قوله تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل لكم من رزق . . . » .

والمعنى : كما يقول كثير من المفسرين(١) أخبرونى عن الذى أنزله الله لكم من رزق فحكمتم على بعض بأنه حرام وهو حلال : وعلى بعض آخر بأنه حلال مع أن الكل حلال يشير بذلك سبحانه إلى ما حكاه عنهم فى سورة الأنعام من قولهم « هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون »(٢) وقولهم « ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم »(٣) هل أذن الله لكم فى ذلك التحريم والتحليل فأنتم تمتثلون أمره تعالى . ؟ أم على الله تفترون وتكذبون بنسبة الإذن إليه ، والاستفهام هنا للتقرير والتبكيت وذلك لتحقق العلم بالشق الأخير قطعاً وهو (أنه سبحانه لم يأذن كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه وهذا على اعتبار (أم) متصلة .

وإظهار اسمه الجليل وتقديمه على الفعل دلالة على قبح افترائهم وتأكيد للتبكيت أثر تأكيد ، وجوز بعض المفسرين أن تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل) التى للاضراب الإنتقالى، حيث أضرب عن التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه .

ثم ساق سبحانه بعد ذلك كلاماً كريماً يبين مقدار هول ما سيلقون

---

(١) أنظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٣٥، ٣٣٦ بتصرف وحاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٥٨

(٢) الأنعام (١٣٨) . (٣) الأنعام (١٣٩) .

من جزاء على جعلهم هذا ،معبراً عنهم سبحانه بالموصول فى موقع الإضمار لقطع احتمال الشق الأول و ومتسجيل عليهم بالشق الثـــانى وما يستتبعه ويترتب عليه ، ومتى سيقع هذا الجزاء ؟ (إنه يوم القيامة) إذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال والأقول ، والمجازاة عليها ثقالا بمثقال ، والمراد تهويل هذا اليوم وتفظيعه بتهويل ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ ، وكأنه سبحانه يقول لهم ، أى شىء ظنهم بما سيقع يوم القيامه . . ؟ ، أيحسبون أنهم لايسألون عن افتراثهم ؟ أو لايجازون عليه . ؟ أو يجازون عليه خيراء يسيراً . ؟ ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون . ؟ كلا ، إنهم لفى أشد العذاب لأن معصيتهم أشد المعاصى ، (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولـكن أكثر الناس لا يشكرون)(١) .

والمعنى أنه سبحانه صاحب فضل عظيم لايقدر على جميع الناس بإمهالهم والأنعام عليهم بنعمة العقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح، وكذلك برحمتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم لبيان الحلال والحرام ، وإرشادهم إلى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ، إلا أن الغالب من هؤلاء الناس لايصرفون قواهم ولا أفكارهم إلى ما خلقت له ، ولا يتبعون دليل العقل فيما يمكن أن يدرك بالعقل ، ولا دليل الشرع فيما لا يدرك إلا بالشرع ، ومن أجل ذلك وقعوا فى فهاوى الردى ، وصدق الحق سبحانه إذ يقول ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً(٢) .

إلا أن المسلم الحق هو من يلتزم بأحكام دينـــه الحنيف فيما أحل وفيما حرم ، فيحل حلاله ويحرم حرامه،ويشكر الله سبحانه على ما أحل له ويصبر على ما حرم عليه ، وهذه هى نهاية التقوى التى أمرنا بها القرآن الكريم والله أعلم .

---

(١) يونس (٥٩) .
(٢) الكهف (١٧) .